الموضوع الخامس

الحركات الإنفصالية ضد الدولة العثمانية

أ - فى مصـــــر : حركة على بك الكبير
ب - فى بلاد الشام : ١- حركة ظاهر العمر
٢- حركة أحمد باشا الجزار

إن نظرة متفحصة لأحوال الدولة العثمانية فى منتصف القرن الثامن عشر وبخاصة فى الفترة التى قامت فيها حركة على بك الكبير تبين لنا مدى الضعف الذى لحق بالدولة العثمانية من جراء الضربات التى انهالت عليها من الدول الأوربية وبخاصة الروسيا ، فأوهن ذلك قبضتها على ممتلكاتها وأوجد العديد من الحركات الانفصالية المشابهة لحركة على بك الكبير والتى من أهمها حركة ظاهر العمر فى فلسطين ، وحركة الأكراد فى شمال العراق والشام ، والثورات فى البوسنة والهرسك والجبل الأسود والافلاق والبغدان[١] ، والنزاع بين الأشراف على إمارة مكة . ونتيجة لذلك أخذ بكوات المماليك فى مصر بالاستئثار بالنفوذ والسلطة حتى صار نفوذهم يفوق سلطة الباشا العثمانى ، وأصبح لزعيمهم الذى كان يعرف بشيخ البلد الكلمة المسموعة فى البلاد ، وفى النهاية استغل أحدهم وهو على بك الكبير الفرصة وتمكن من الانفراد بالسلطة فى مصر فى عام ١٧٦٦.

١ - حركة على بك الكبير :

وقبل أن نتناول حركة على بك الكبير بالدراسة لابد لنا من وقفة نعرض فيها لنشأته وكيفية وصوله إلى حكم مصر .

الاسم الحقيقى لهذا المملوك هو يوسف بن داود وقد ولد فى عام ١٧٢٨ فى بلده

١- محمد رفعت رمضان: على بك الكبير، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٥٠ ص٥ .

أبازة من أعمال التوقاز العثمانى ، وكان والده واحد من قساوسة الكنيسة اليونانية ، ويرغب فى أن يكون ابنه مثله قسيسا ، ولكن الأمر لم يمكنه من ذلك وخاصة بعد أن اختطفت عصابة من قطاع الطرق هذا الابن أثناء رحلة صيد كان يقوم بها فى إحدى الغابات وباعوه لأحد تجار الرقيق فسافر به حتى وصل إلى الاسكندرية وباعه هناك بثمن بخس لمدير جمرك الاسكندرية ، وقد قام مدير الجمرك باهدائه إلى ابراهيم بك أحد زعماء المماليك فى مصر(١) وقد اعتنق الإسلام ، وتسمى باسم على ، وقد أظهر هذا المملوك من ضروب الشجاعة فى ركوب الخيل والتدريبات ما ساعده على الترقى فاكتسب لقب "جن على" ولما بلغ الثامنة عشرة أعتقه أستاذه وولاه سنجقا ، ثم زادت شهرته بعد نجاحه فى الضرب على أيدى البدو الذين كانوا يغيرون على القاهرة ليلا ، فقربه سيده وجعله كاشفا(٢) وواصل على بك الترقى حتى وصل إلى منصب شيخ البلد ، وخلال ذلك أخذ على بك فى التودد إلى العثمانيين حتى اكتسب ثقتهم وفى الوقت نفسه نشط فى وضع أتباعه فى المناصب الهامة(٣) ، كما نجح فى تقليص نفوذ كل من الحامية والديوان عن طريق تورطهم فى المشاركة فى الحروب الداخلية ، وتأخير رواتبهم بحجة قلة المال .

كما نجح على بك الكبير فى تركيز السلطتين الحربية والادارية فى يده وبخاصة بعد نجاحه فى كسر شوكة العربان فى الوجهين البحرى والقبلى فصار صاحب النفوذ المطلق على جميع أنحاء مصر واستقامت له الأمور حتى خافه الناس وهابه الأمراء وأخذ يدير دفة الأمور كما يشاء(٤) . وانتهز على بك فرصة انشغال الدولة العثمانية بحروبها فى الروسيا(٥) ، فاستصدر من الديوان أمرا بعزل الوالى ثم تولى الحكم مكانه وأبطل ورود الولاة العثمانيين إلى مصر(٦) ، وامتنع عن دفع الأموال إلى الخزينة السلطانية ، وفى عام ١٧٦٨ أحدث تغييرا فى شكل العملة فجعل على أحد وجهيها اسم السلطان ، وعلى الوجه الآخر اسمه .

وعلى الرغم من كل ذلك فمن الصعب القول ان على بك الكبير كان يرغب فى الانفصال عن الدولة العثمانية نهائيا ، بل كان كل هدفه هو الاستيلاء على السلطة فى ظل

١- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق ص١٨-١٩ .

٢- محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ، القاهرة ، دار المعارف ص١٦ .

٣- الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ١ ، القاهرة ، المطبعة العامرة الشرفية ص٣٨٤.

٤- ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ص١٥١ .

٥- محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص٢٠ .

٦- الجبرتى : المصدر السابق جـ١ ص٣٨٤ .

السيادة العثمانية وخاصة أن الدولة العثمانية كانت تمثل درعا تحمى الولايات الإسلامية من الأطماع الأوربية ويؤكد ذلك ما أورده الجبرتى بقوله "اتفق أن على بك صلى الجمعة فى أوائل شهر رمضان بجامع الداودية فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بك ، فلما انقضت الصلاة وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب ، وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح فقال له : من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك أنى سلطان ؟ فقال : نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك فأظهر الغيظ وأمر بضربه ، فبطحوه وضربوه بالعصى ، فقام بعد ذلك متألما من الضرب ، وركب حمارا وذهب إلى داره وهو يقول فى طريقه بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ ، ثم أن على بك أرسل إليه فى ثانى يوم دراهم وكسوة واستسمحه(١) .

وقد استطاع على بك الكبير خلال حكمه لمصر أن يخرج البلاد من الدائرة الضيقة التى فرضتها عليه المنازعات وحكم الحكام فبدأ يهتم باقرار الأمن فى البلاد وتنظيم الادارة،كما أخذ يتطلع إلى ما وراء حدود مصر فتحالف مع ظاهر العمر حاكم عكا ، كما عقد اتصالات سياسية مع روسيا واتصل بقائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط وطلب منه امداده بالذخائر الحربية والأسلحة . فاستجاب القائد الروسى لطلبه بغية إنهاك الدولة العثمانية فى حروب داخلية ، واضعاف قدرتها العسكرية ضد الروسيا(٢) ، وعلى الرغم من ازدياد نفوذ على بك ، وافتئاته على حقوق العثمانيين فان انشغال السلطان العثمانى بأمور الدولة الخارجية قد أضعف جهوده الرامية إلى التخلص من على بك (٣) ، ونتيجة لذلك بدأ على بك الكبير يتطلع إلى ما وراء حدود مصر .

ونتيجة لاختلال أحوال الحجاز فى تلك الفترة تحول انتباه على بك نحو بلاد العرب حتى تتمكن مصر من السيطرة على تجارة البحر الأحمر وشواطئ الهند(٤) ، وليجعل من ميناء جدة مقرا لهذه التجارة ، هذا بالإضافة إلى إحرازه للمجد والشهرة بالاستيلاء على الحجاز أرض الحرمين الشريفين(٥) .

وقد استطاع على بك الكبير الاستيلاء على بلاد الحجاز بعد أن أرسل قواته بقيادة

١- الجبرتى : المصدر السابق جـ٢ ، تحت عنوان "حوادث عام ثلاث وثمانين ومائة وألف" .

٢- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص١٥٩ .

٣- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق ص٦٤ .

٤- Irwin, Eyles : Series of Adventures in the course of Avoyage up the Red Sea Dublin 1780 vol 1 p. 159 .

٥- شكرى : المرجع السابق ص٢١-٢٢ .

محمد بك أبو الذهب[1] إلى مكة ، وتمكن من الاستيلاء عليها فى عام ١٧٦٩ . وفى أعقاب ذلك منح شريف مكة على بك الكبير لقب سلطان مصر وخاقان البحرين[2] فزاد ذلك من شهرته ، وقوة شوكته . وقد شجعت هذه الانتصارات على بك الكبير على المضى فى مشروعاته التوسعية ، فرأى ضرورة اخضاع بلاد الشام لسلطته ، وقد شجعه على ذلك ما يلى :

١ – اضطراب الأحوال فى سورية وثورة حليفه ظاهر العمر .

٢ – انشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع الروسيا ، وعدم تمكنها من إرسال النجدات العاجلة إلى بلاد الشام .

٣ – علاقات على بك بالقيصرة كاترين الثانية قيصرة الروسيا واستعدادها لمعاونته ضد السلطان العثمانى ، وظهور الأسطول الروسى فى البحر المتوسط .

٤ – تذمر أهل الشام من العثمانيين نتيجة لفساد الحكم والتفريق بين الأجناس المختلفة .

ونتيجة لذلك أمر على بك الكبير قائده محمد بك أبو الذهب بالزحف على بلاد الشام.

وقد أحرز الجيش المملوكى عدة انتصارات متوالية ، فدخل أبو الذهب غزة فى مارس ١٧٧١ ثم استولى على الرملة وحاصر نابلس ثم تقدم صوب بيت المقدس حتى سلمت له ووصل إلى يافا وعكا حيث قوبل بكل حفاوة ، وبدت بلاد الشام كلها تحت رحمته ، وخلال ذلك لقى أبو الذهب كل معاونة وتعضيد من الشيخ ظاهر العمر الذى ساعده بالنصح تارة وبالامدادات تارة أخرى حتى اضطر العثمانيون إلى التقهقر ، واستطاع أبو الذهب الوصول إلى دمشق[3] ودخلها فى السادس من يونيو ١٧٧١م ، وأتت إليه الوفود تهنئه وتزف إليه التهانى ، ولما وصلت أخبار هذه الانتصارات إلى القاهرة أقيمت الاحتفالات والزينات ، غير أن هذه الفرحة لم تتم فلم يلبث أبو الذهب أن غير موقفه من سيده ، فأعلن العصيان عليه وأصدر أوامره إلى قواته بهدم خيامهم والانسحاب من دمشق ، كما نادى أهالى الشام بالأمان[4] وكر عائدا إلى مصر ، وسحب فى طريق

١– يرجع اطلاق اسم أبو الذهب على هذا المملوك إلى "أنه لما لبس الخلعة بالقلعة ، صار يفرق البقاشيش ذهبا ، وفى حال ركوبه ومروره جعل ينثر الذهب على الفقراء" . الجبرتى: المصدر السابق جـ١ ص٤٢٢.

٢– إبراهيم الطيب : مصباح السارى ونزهة القارى ص٢٣ .

٣– شكرى : المرجع السابق ص٢٤ .

٤– الجبرتى : المصدر السابق جـ١ ص٣٨٥ .

عودته جميع الحاميات التى كان قد أقامها فى البلاد التى فتحها[1] . ويختلف المؤرخون فى أسباب ذلك وفيما يلى نعرض لآرائهم :

١ – اجتماع القائد العثمانى عثمان باشا بأبى الذهب فى خيمته واقناعه بأن ما قام به ضد السلطان العثمانى يخالف الشرف والأمانة ، كما أن استيلاءه على دمشق عنوة يخالف الدين وخصوصا أن دمشق من أهم مراكز الحج الرئيسية إلى الحرمين ولا يصح انتهاكها .

٢ – إرسال عثمان باشا صرة ثقيلة من الدنانير إلى محمد أبى الذهب حتى يترك دمشق ويعود إلى مصر[2] .

٣ – أن أبا الذهب حصل على وعد من السلطان العثمانى بالعفو عنه ، وتوليته شياخة البلد بدلا من على بك الكبير[3] .

٤ – أن أبا الذهب كان يخشى من غضب الدولة العثمانية بعد أن تفرغ من حروبها مع الروسيا فتقوم بالانتقام منه ومن قواته فى بلاد الشام .

٥ – أن العثمانيين نجحوا فى إثارة النزعة الدينية عند أبى الذهب ، وأوهموه بأن من يعصى السلطان كأنه يعصى الله ورسوله ، كما أثبتوا له أن اتصال على بك الكبير بالروس أعداء الإسلام وانسياقه وراء أفكار كاترين امبراطورة الروسيا كل ذلك يعد خيانة للإسلام والمسلمين .

ولما وصلت أنباء انقلاب أبى الذهب على سيده إلى القاهرة لم يكن هناك متسع من الوقت لتجهيز الجيوش لملاقاته ، ومع ذلك فقد أرسل على بك جيشا لمقاتلته بقيادة إسماعيل بك غير أن هذا الجيش انضم إلى أبى الذهب ، وعندئذ لم يجد على بك مناصا من الانسحاب والالتجاء إلى حليفة ظاهر العمر فى عكا ، ومشاركته فى مواجهة العثمانيين فى بلاد الشام .

وفى بلاد الشام أعد على بك العدة للعودة إلى مصر ، فجمع حوالى خمسة آلاف جندى تقدم بهم لملاقاة أبى الذهب الذى أرسل جيشا لملاقاته يصل تعداده إلى حوالى اثنى عشر ألفا[4] . وفى الصالحية دارت المعركة الفاصلة وانتصر أتباع على بك فى بداية الأمر ، وانفتح الطريق أمامهم إلى القاهرة ، ولكن أبا الذهب لم يلبث أن أثار الحماس فى أتباعه متهما على بك بالكفر والالحاد ، كما رماه بالتحالف مع الكفار لاخضاع البلاد حتى

١- محمد رفعت رمان : المرجع السابق ص١٦٩ .

٢- شكرى : المرجع السابق ص٢٧ .

٣- تاريخ جودت جـ١ ص٣٤٦-٣٤٧ .

٤- شكرى : المرجع السابق ص٢٨-٢٩ .

يتصف على الدين الإسلامي ويرغم الأهالي على اعتناق المسيحية ، ونتيجة لذلك ازداد حماس أتباع أبي الذهب وتمكنوا من إحراز النصر على قوات علي بك الذي ظل يقاتل حتى أصيب بجرح في وجهه وسقط من على جواده وأخذ أسيرا ، وبقي في الأسر سبعة أيام حتى مات في الخامس عشر من صفر ١١٨٧هـ الموافق ٨ مايو ١٧٧٣م ، وقد شكك الجبرتي في طريقة موته ، فقال: "فأقام سبعة أيام ومات والله أعلم بكيفية موته(١)" .

وبوفاة علي بك الكبير أسدل الستار على أكبر محاولة عرفتها مصر للتخلص من السيادة العثمانية واعلان استقلالها واستأثر محمد أبو الذهب بالنفوذ والسلطة بمساندة العثمانيين ، ومعاضدة الباب العالي له حيث "راسل الدولة العثمانية وأظهر لهم الطاعة(٢)" واعترف بسيادتهم على مصر ، ولكن حكمه لم يستمر طويلا حيث وافته المنية في الثامن من يونيو ١٧٧٥م أثناء محاربته لقوات ظاهر العمر فغير ذلك موازين الأمور داخل مصر .

وقد اختلفت آراء الباحثين حول وفاة أبي الذهب فمنهم من ذهب إلى أنه مات بداء السكتة القلبية ، ومنهم من قال إنه مات بمرض الحمى ، ومنهم من ذكر انه أصيب بمرض خبيث توفي على أثره نتيجة لأنه هدم ديرا للرهبان وقتل من فيه(٣) . وعلى كل حال فبعد وفاة أبي الذهب وقعت البلاد في حالة من الفوضى فقد شرع كبار أمراء المماليك في التنازع على السلطة وانقسموا إلى شيع وطوائف ، ولم تهدأ لهم ثائرة حتى تمكن مراد بك وابراهيم بك من الاستئثار بالحكم واقتسام مشيخة البلد وإمارة الحج فيما بينهما ، وفي عهدهما ازدادت أحوال مصر سوءا فقد شاعت فيها الفوضى وانعدم الأمن ، وانفلت زمام الأمور من يد العثمانيين(٤) . ولما خرجت الأمور عن حدودها وتدهورت الأحوال لدرجة أن أصبح الأجانب في مصر رهينة تصرفات مراد بك وابراهيم بك وأخذ في ابتزاز قناصل الدول الأوربية وتهديدهم بتخريب كنائس الاسكندرية إذا لم يدفعوا لهما الأموال التي يطلبانها ، تقدمت الدول الأوربية بشكواها إلى الباب العالي في عام ١٧٨٦ ، فأرسلت الدولة العثمانية أسطولا بقيادة حسن قبطان باشا فتمكن من السيطرة على زمام الأمور(٥) ، والدخول إلى القاهرة في أغسطس ١٧٨٦م والحد من سيطرة هذين المملوكين إلى درجة كبيرة ، وظل الحال على هذه المنوال حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر في يوليو من عام ١٧٩٨م .

١- الجبرتي : المرجع السابق جـ١ ص٣٨٥ . وانظر أيضا فؤاد شكري : المرجع السابق ص٣٠.
٢- الجبرتي : المصدر السابق جـ١ ص٤٢٣ .
٣- تاريخ الأمير حيدر : نزهة الزمان في تاريخ جبل لبنان ، القاهرة ، مطبعة السلام ١٩٠٠م ص٨٢٤.
٤- Charles Roux : L' Angleterre de Suez, et l' Egypte PP. 20-21 .
٥- IBid : P. 195 .

ثانيا : الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية فى بلاد الشام :

قسمت بلاد الشام بعد سقوطها فى يد العثمانيين فى أعقاب موقعة مرج دابق ١٥١٦م إلى ثلاث إيالات هى :

١ - حلب وتشمل بلاد الشام الشمالية .

٢ - طرابلس وتشمل وسط الشام .

٣ - دمشق وتشمل معظم البلاد الجنوبية وفلسطين .

واستمر هذا التقسيم سائدا حتى عام ١٦٦٠م إذ استحدثت إيالة جديدة وهى صيدا لتشمل مدن الساحل وضواحيها وبلاد صفد حتى تتمكن الدولة من تقوية قبضتها على هذه المناطق(١) وفيما يلى نعرض لأهم الحركات الانفصالية فى هذه المناطق :

١ - حركة ظاهر العمر الزيدانى :

بعد أن اختار أهل طبرية وصفد ظاهر العمر حاكما عليهم فى عام ١٧٣٣م ، أخذ فى تنظيم أموره استعدادا للانفصال عن الدولة العثمانية . وقد استطاع ظاهر العمر أن يضم فى فترة قصيرة صيدا ويافا وحيفا ونابلس والرملة إلى حكمه ، ولما حاول باشوات الشام الوقوف فى وجهه أخفقوا فى مسعاهم فأدى ذلك إلى ازدياد نفوذه(٢) ورغبته فى التوسع . وخلال ذلك تمكن ظاهر العمر من الحصول على فرمان من السلطان العثمانى بحكمه لصيدا ، كما تمكن من الاستيلاء على عكا وبنى بها قلعة وسكن فيها وصارت له شهرة ذائعة وأخذت قوته فى التزايد وبخاصة بعد تحالفه مع على بك الكبير فى مصر .

ونتيجة لانشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع الروسيا استأثر ظاهر العمر بحكم عكا فى الفترة ما بين ١٧٥٠-١٧٧٦م ولم تجرؤ الدولة على مناصبته العداء ، بل اضطرت إلى التساهل معه وأدى ذلك إلى تراخى نفوذها وتقوية مركزه ، فأخذ يبنى القلاع حول عكا ، ويقوى من استحكاماتها ، ويتخذ الوسائل الكفيلة التى تدعم نفوذه فى هذه المنطقة(٣) .

١- رأفت الشيخ : فى تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار الثقافة ١٩٧٧م ص١٣٥ .

٢- من أبرز الأمثلة على ذلك حملة سليمان باشا والى دمشق إلى طبرية فى عام ١٧٣٣ .

انظر ميخائيل الدمشقى الخورى : تاريخ الشام ١٧٢٠-١٧٨٢ تحقيق أحمد غسان سبانو ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٨٢ ص٢٤ .

٣- فؤاد شكرى : المرجع السابق ص٢١ .

ونتيجة لتحالف ظاهر العمر مع على بك الكبير فى مصر ، أبدى كل منهما استعداده لنجدة الآخر فى حالة محاولة الدولة العثمانية الغدر بهما ، وقد أبدى على بك استعداده لنجدة ظاهر العمر ومساعدته ضد عثمان باشا والى الشام ، وأرسل إليه جيشا من أربعة آلاف جندى لمعاونته .

وعندما أرسل على بك جيشا بقيادة محمد بك أبى الذهب إلى الشام لمحاربة الدولة العثمانية آزره ظاهر العمر حتى تم له النصر ، ودخول دمشق إلا أن خيانة أبى الذهب لسيده قلبت الأمور رأسا على عقب وجعلت على بك يفر إلى فلسطين للاستنجاد بالشيخ ظاهر العمر فى محاولة لاستعادة مركزه فى مصر ، وعلى الرغم من تقديم ظاهر العمر المساعدات لنجدته فقد اندحرت قواته للمرة الثانية على أيدى أبى الذهب ، فأخذت العواصف تهب بشدة على حليفه ، وانتهى الأمر بالتدخل العثمانى المسلح والقضاء على ظاهر العمر فى عام ١٧٧٥م ، وقتل معظم أبنائه وعودة النفوذ العثمانى إلى هذه المنطقة، ولكن ذلك لم يستمر طويلا فقد أدى انعدام السيطرة العثمانية على تلك المنطقة إلى ظهور أحمد باشا الجزار بحركة انفصالية أخرى فى محاولة لملء الفراغ السياسى فى تلك المنطقة فى الفترة ما بين ١٧٧٦-١٨٠٤م .

٢ – حركة أحمد باشا الجزار(١) ١٧٥٠-١٨٠٤م :

بدأ نجم أحمد باشا الجزار فى الظهور بعدما التحق بخدمة على بك الكبير فى مصر. إلا أنه ما لبث أن فكر فى الهرب من مصر خشية بطش سيده ، فتنكر فى زى المغاربة ، وتوجه إلى دمشق حيث عمل فى خدمة واليها فترة ، ثم اتجه إلى لبنان واتصل بالأمير يوسف الشهابى الذى أعجب بذكائه وقوة عزيمته وطموحه فأسند إليه ولاية بيروت التى كانت مهددة فى ذلك الوقت من قبل الأسطول الروسى(٢) ، وقد تمكن الجزار من السيطرة على زمام الموقف فى بيروت لفترة ، إلا أن الأسطول الروسى سرعان ما

١- اسمه الحقيقى أحمد البوسناقى ، وأطلق عليه لقب الجزار لشدته وصرامته واسرافه فى القتل وسفك الدماء من أجل الوصول إلى الحكم والسيطرة والولاية .

للتفاصيل انظر الأمير أحمد حيدر الشهابى: لبنان فى عهد الشهابيين – تحقيق أسد رستم وفؤاد البستانى ، القسم الأول ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣ ص٩٦ .

٢- محمد جميل بيهم : الحلقة المفقودة فى تاريخ العرب ، القاهرة ، مطبعة البابى الحلبى ، الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م ص٥٦ .

هزم قواته هناك مما اضطره للرحيل إلى استنبول ، وهناك استطاع أن يظفر بلقبى الوزارة والباشوية ، وبمنصب ولاية صيدا وأن يبدأ مرحلة جديدة فى حياته كوال تابع للدولة العثمانية مباشرة . وبعد أن برزت قدرة الجزار فى السيطرة على زمام الموقف ، والقضاء على بقية الزيدانيين من أتباع ظاهر العمر ، منحته الدولة العثمانية عكا بالإضافة إلى صيدا ، فقام بتحصينها ، كما عمل على زيادة مماليكه وأنصاره . وخلال ذلك سعى الجزار للقضاء على أسرتى آل العظم والشهابيين[1] ، كما بلغ نفوذه شأوا عظيما لدرجة أن أصبح بمثابة الحاكم الفعلى لبلاد الشام .

وبعد أن سمع الجزار بتحرك قوات الحملة الفرنسية من مصر استعدادا للهجوم على الشام ، بدأ فى زيادة استحكاماته فى عكا ، وتجهيز مدافعه تحت إشراف عدد من الخبراء الأوربيين ، كما أوجد فيها حاميات عديدة تستمد مساعدتها بحرا من الأسطول الانجليزى بقيادة "سيدنى سميث" مما جعل عكا صعبة المنال أمام بونابرت وقواته وجعل رجالات الدولة العثمانية ينظرون إلى الجزار على أنه مطمح آمالهم فى النصر . ونتيجة لاستبسال الجزار وقواته فى الدفاع عن عكا ، وتفشى مرض الطاعون بين القوات الفرنسية اضطر نابليون إلى الانسحاب من أمام أسوار عكا والعودة إلى مصر مما زاد من هيبة الجزار وعزز من مكانته أمام الناس ، وجعله يظهر بمظهر الحاكم المطلق فى بلاد الشام ، ولما خشيت الدولة العثمانية من ازدياد نفوذه أخذت تدبر له المكائد للقضاء عليه فتحالفت مع الأمير بشير الشهابى ضده ولكن الجزار فوت هذه الفرصة على أعدائه، وحاول أن تظل علاقاته وطيدة مع العثمانيين وكان مستعدا لاعلان ولائه للسلطان ، وظلت الأمور على حالها حتى توفى الجزار فى ١٢١٩هـ/ أبريل ١٨٠٤م وهو فى ذروة قوته وسلطانه .

١- للتفاصيل انظر الشهابى : المصدر السابق ص١٦٠-١٦٥ .